لو امتد العمر بنزار قباني هل كان سيبقى أسطورة الشعر العربي

عبدالعزيز قاسم: النهضة العربية أُجهِضَتْ بتأسيس الإخوان المسلمين

الدكتور عبدالعزيز قاسم شاعر وناثر تونسي من طراز رفيع، وهو كذلك ناقد مرموق، وأكاديمي لامع درّس في الجامعة التونسية وفي العديد من الجامعات الأوروبية. كما تقلد مناصب رفيعة، فكان مديرا للإذاعة والتلفزة التونسية، ومديرا للمكتبة الوطنية، ومستشارا لدى الوزارة الأولى وغيرها. وله مؤلفات باللغتين الفرنسية والعربية. "العرب" كان لها هذا الحوار مع عبدالعزيز قاسم حول الواقع الثقافي والحضاري اليوم في تونس والعالم العربي.

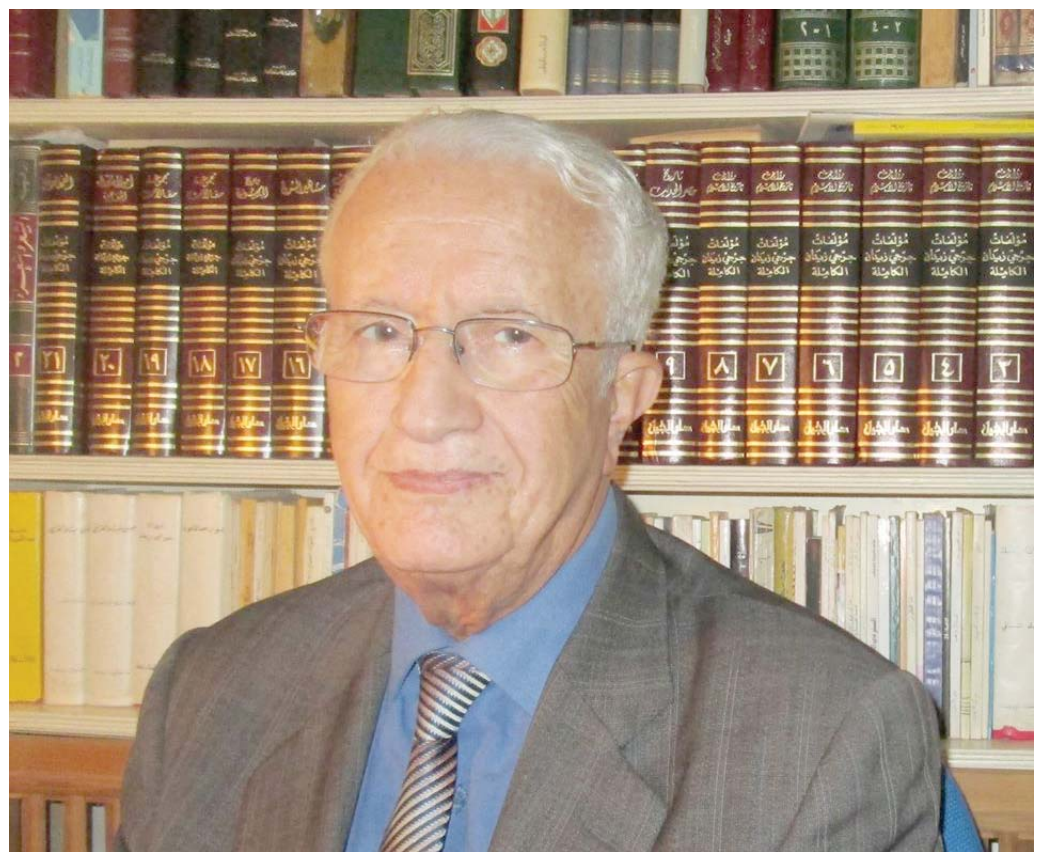

حسونة المصباحي
كاتب تونسي

الحقيقة أن الجلوس إلى الدكتور عبدالعزيز قاسم متعة لا تضاهيها متعة. فالرجل ليس أنيقا في لباسه فقط، وإنما هو أنيق أيضا في كل كلمة ينطق بها، فلا ينتقي إلاّ ما هو مفيد ومعبر وبليغ. ثم إنه ملم بالتاريخ التونسي المعاصر فلا يكاد يفوته منه أيّ شيء. ويعود ذلك إلى أنه عايش أحداثه الصغيرة والكبيرة عن كثب، وكان فاعلا في جلها. كما أنه كان قريبا من كبار الشخصيات السياسية والفكرية والثقافية بحكم المناصب التي شغلها على مدى خمسين عاما.

وخلال السنوات الماضية، دأب الدكتور عبدالعزيز قاسم على كتابة مقالات عن الوضع السياسي والثقافي في تونس، منبها النخب التونسية بجميع تياراتها إلى المخاطر التي تتهدد تونس في هذا الزمن العصيب الذي استفحلت فيه الفوضى، والرداءة على جميع المستويات.

كورونا والتغيير

نبدأ حديثنا مع الدكتور عبدالعزيز حول عزلة الكورونا، كيف يعيشها وماذا يقرأ أو يكتب خلالها. ويقول "أقرأ وأكتب بالتأكيد. أقرأ قبل كل شيء 'أدب الكورونا'. لا حديث في وسائل الإعلام والتواصل كلها إلا عن الوباء فلا مناص من قراءة ما يكتب. وأكثره لخبطة وتناقض. ولا أتحدث هنا عما يقوله العوام بل العلماء والأطباء أنفسهم وكأن أهل الذكر قد فوجئوا تماما وكأن الفايروس قد نزل من المريخ ولم يخرج من مختبراتهم. ولكن مثلي يجد لنفسه، ولحسن الحظ، مطالعات أخرى. وقد تكون الصورة المتبادرة لذهني الآن مجازية ولكنها في الواقع تعبر عن حالتي النفسية".

ويضيف "أنا طوال حياتي المهنية، في مجال التدريس والإعلام وعبر إسهام فكري مكثف محليا وخارجيا، مشغول عن حياتي الداخلية وعن إنتاجي. كنت أختلس الوقت اختلاسا وتحت وطأة إلحاح الإبداع لأكتب قصيدة وما شابه. فأنا شاعر، أساسا، اختطفتني إدارة الشأن الثقافي واهتمامات سياسية اضطلعت بها مكرها. ولكن الحجر الصحي فرض عليّ خلوة طالما تهيبتها مع الذات. وأنا اليوم أعيش، بعمق، مقولة الشاعر بول فاليري 'يجب على المرء أن يدخل ذاته مدججا بالسلاح'. ولكني مدرب على الحوار والمفاوضات. من الناحية العملية أقرأ المؤجل من الكتب التي تنتظر على طاولة الفراش وأعيد قراءة الروائع من شعر ونثر. وألمّ المخطوط من أوراقي المبعثرة وأراجعها بنية إعدادها للنشر. ولقد خصصت الشعر بحيز لا يستهان به من وقتي".

بحسب بعض الخبراء والمفكرين قد يفضي وباء كورونا العالمي إلى تحولات كبيرة على أصعدة متعددة، نسأل قاسم حول رؤيته لهذه التحولات، فيجيبنا "كل المفكرين في مجالي الاقتصاد والاجتماع يقولون إن ما بعد الوباء لن يكون كالذي قبله. فنحن نعيش تجربة شمولية قصوى لم تعش مثلها أجيالنا الحية. كل البشر في الهوى سواء والعالم أصبح بالفعل قرية. مرة أخرى يتبين أن الإنسان الذي غزا الفضاء وبدأ يستعمر القمر ونفذ إلى أسرار ما كان له أن يعرفها أصبح شريكا في الألوهة دون أن يصبح إنسانا سويا. وإني لأحس بأن الأنفس، حتى عند الكبار، أصغر مما كنت أتوقع. ستتغير، حتما، أشياء كثيرة. وليس بالضرورة في الاتجاه الصحيح".

ويتابع "لن تمس هذه التغييرات خساسات الإنسان. أنا لا أصدق أن السيد دونالد ترامب، مثلا، سيصبح أرجح عقلا وأقل تهورا في علاقاته الدولية. كما أني لا أتصور أن القتلة سيصبحون ملائكة، ولا أن بعض العرب سيستبدلون روح الخيانة والتخاذل بقيم الحمية والشرف، ولا أن الإسلام السياسي سينفتح على الفلسفة والعلوم الإنسانية ولا حتى على المتنبي، ولا أن الذين يعزون الأوبئة إلى الغضب الإلهي داعين إلى التوبة وكثرة الدعاء سيدركون ارتباط النتيجة بالسبب. في المقابل، لا أفقد الأمل في أن قواعد العولمة المشؤومة ستتغير وربما قويت منزلة روسيا الاتحادية والصين في مواجهة الغول الأميركي الذي لم يعد له ما يقدم للبشرية عدا الغطرسة والاستهتار بكل القيم المتعارفة، ربما انكفأت سلطة الدولار، ربما اضطرت الرأسمالية إلى أن تستحي قليلا. وهذه بالطبع تطورات إيجابية بالإمكان أن تحدث وأن تعود بالفائدة على الجميع. كل ما نتمناه أن تصبح القوة الناعمة بديلا عن وسائل الدمار".

وعلى صعيد اجتماعي وفني وأدبي، يتساءل قاسم في شيء من القلق حول حميمية العلاقات البشرية في مستوى الأفراد. فلقد تأكد أن الإنسان حمّال جراثيم، فهل انتهى زمن الحفاوة والعناق والتباوس؟ هل سيخرج الحب خاسرا من هذه المحنة؟

الحداثة في خطر

قال الدكتور قاسم ذات مرة "قرن ونصف من التنوير التونسي تبخر فجأة" نسأله ماذا يعني بذلك؟ وكيف يفسر الردة التي نعيشها راهنا على المستوى السياسي والثقافي والديني؟

مرجعية التنوير هي عصر النهضة الذي يشمل المشرق والمغرب العربيين، وهما ما أسميه الجزء المفيد أو القابل للاستثمار الثقافي والاقتصادي في الوطن العربي. وقبل الحديث عن إسهام تونس يجب أن نذكر أن العالم العربي أدرك باكرا أن همومه مشتركة متداخلة: عصور انحطاط واحدة، استعمار عثماني متخلف واحد، استعمار أوروبي استغلاليّ واحد، ظلامية دينية واحدة. هناك من يشتم هجمات الدخلاء دونما تمييز، متناسيا أننا كنا في حالة قابلية للغزو. والحقيقة، وبصرف النظر عن الوطنيات المراهقة التقليدية، فإن حملة بونابارت على مصر، نهاية القرن الثامن عشر، تختلف تماما عن غيرها من الحملات. فالرجل جاء إلى مصر ليقطع الطريق عن الاستعمار البريطاني المُجهّل وجاء مصحوبا بجيش من العلماء من مختلف الاختصاصات ثم إن الحملة لم تدم إلا ثلاث سنوات، طرفة عين بالنسبة إلى التاريخ، مثلت بالنسبة إلى الشعب المصري وبالتالي إلى الشعب العربي أكبر صدمة ثقافية قبل قرون".

> تونس انخرطت منذ البداية في النهضة العربية لكن اليوم بسبب الديمقراطية المغشوشة تسلل أعداء الحداثة والحريات الفكرية

ويتابع "عاد الغازي إلى فرنسا وخلف مؤسسات وأسئلة كبيرة لم نتوصل إلى الآن إلى طرحها طرحا صحيحا. كان ذلك أول لقاء بين العرب والغرب بعد سقوط الأندلس، الغرب اللاتيني الذي لنا معه مد وجزر عبر الأزمنة، فرنسا الثورة بالذات. كانت الأسئلة البديهية التي طرحت نفسها بقوة، بصرف النظر عن الجانب الأخلاقي، هي: من أين لهؤلاء 'الكفار' بكل هذه القوة؟ بكل هذه العلوم وتقنيات التحكم في الطبيعة؟ لماذا تخلفنا؟ وهل من سبيل إلى تدارك ما فات؟ كان الرأي السائد منقسما إلى وجهتين آنذاك. هناك من رأى أن العودة إلى المنابع والأصول الحضارية هي الكفيلة بتجديد عصورنا الذهبية وهناك من رأى أن الأخذ بأسباب القوة لا يتأتى من الماضي أيا كانت إشراقته فلا غضاضة في الذهاب إلى دار الكفر للارتواء مباشرة من منابع المعرفة ولقد جاء في الأثر 'اطلبوا العلم ولو في الصين'. وكان أن أرسل محمد علي أول بعثة طالبية إلى فرنسا احتضنها العلماء الذين رافقوا الحملة البونابرتية العابرة".

وبالعودة إلى السؤال في ما يتعلق بتونس، لا بد من الإشارة إلى أنها انخرطت منذ البداية، على غرار بلاد الشام وبلاد الرافدين كعنصر نشط في عصر النهضة العربية. يذكر قاسم أن رجال الإصلاح كثر ومنهم في القرن التاسع عشر الشيخ محمود قابادو (1812 – 1872) وكان معاصرا لرفاعة الطهطاوي وله خبر بأعماله ودعا هو أيضا إلى الاقتباس من الحضارة الأوروبية، ومحمد بيرم الخامس (1840 – 1889) الذي توفي بالقاهرة وفي ذلك دليل على وثوق صلته بالحركة الإصلاحية في مصر، وخيرالدين التونسي (1823 – 1890) وهو الذي أنشأ معهد الصادقية الشهير الذي احتضن العلوم الحديثة ومنه تخرجت نخب تونسية نشرت الوعي والمعرفة بين الناس. وفي القرن العشرين تواصلت حركة الإصلاح على يد رجالات الحركة الوطنية التحريرية وعلى رأسهم الشيخ عبدالعزيز الثعالبي والحبيب بورقيبة. وكما هو الحال في كافة أنحاء المشرق والمغرب بشر المصلح الطاهر الحداد بضرورة تحرير المرأة وفكها من براثن الفقهاء. ونستطيع أن نؤكد أن البند الأول من مشروع الإصلاح العربي هو النهوض بالمرأة وهو ما توفق إلى تحقيقه الرئيس بورقيبة بالقانون عبر سنه لمجلة الأحوال الشخصية وإقراره لإجبارية تعليم المرأة.

ويضيف "كان لا بد من هذه المقدمة الموجهة للقراء الشبان ليفهموا ما كنا فيه وما سعينا لإنجازه ولماذا انتكسنا. نحن نتباهى بأننا ثرنا على الاستبداد وهذا صحيح وأرسينا أسس الديمقراطية، ولكنها ديمقراطية مغشوشة فعن طريق صناديق الاقتراع تسلل أعداء الحداثة والحريات الفكرية وأستطيع أن أؤكد أننا تراجعنا عما كنا فيه من تقدم. ما زالت القوانين جارية ولكن المرأة التونسية أجبرت على التنازل عن كثير من حقوقها المعنوية. لقد تعطلت المسيرة نحو الحرية والتقدم. في العقود السابقة كانت حواراتنا تحوم حول التنمية والإقلاع. اليوم شغلنا الشاغل هو ثنائية الحلال والحرام أو الخلافة وعورة المرأة. لقد أجهضت النهضة أو أنها أصبحت قابلة للإجهاض غداة أسس حسن البنا جمعية الإخوان المسلمين ولم تستطع العلمانية العربية تحصين المشروع بدروع عقلانية قوية".

عبدالعزيز قاسم شاعر، نسأله ما هي مهمة الشاعر راهنا فيقول "معظم شعراء اليوم يقولون ما لا يصلح أن يصبح فعلا. نزار قباني آخر شاعر جماهيري. وأعتقد أنه لو امتد به العمر لتقلص أثره وتأثيره. لم يعد باستطاعة الشعراء تحريك الجماهير. والمسؤولية لا تقع على عاتق الشاعر وحده. فالجموع أصبحت عصية على التعبئة خارج الإطار الظلامي. يضاف إلى ذلك غياب الخطباء ذوي الكاريزما الذين كانوا يتقنون فن الكلمة. ضرب العِيُّ أطنابه واستوى عند الناس باقلُ وقس بن ساعدة. إن شاعرا كبيرا كأدونيس ما زال يحتفظ بموقعه بسبب مواقفه الفكرية التقدمية في نثره أكثر من شعره. الظاهرة مع الأسف عالمية. ولكن وقعها أشد إيلاما بالنسبة إلينا نحن العرب أحفاد المتنبي والمعري. ولكني لا أيأس من عودة الوعي ويقظة حاسة الذوق وحس الجمال. لذلك أستمر في كتابة الشعر وأومن بما قال الشاعر: وصحيحٌ أني ناظمُ أشعارْ/ بالشِّعْرَى تربطني أسطورةُ حسنٍ جوارْ/ أتحدَّى جهلَ العصْر وفي نظري من ليس يحبُّ الشعرَ حمارْ".

معظم شعراء اليوم يقولون ما لا يصلح أن يصبح فعلا

الشعر موقف من العالم وهو سلطة حرّة

أزراج عمر
كاتب جزائري

ولد الشاعر طه عدنان في أسفي بالمغرب وترعرع بمراكش، ودرس الاقتصاد بجامعة القاضي عياض المغربية، والتسيير ببروكسل، ويعمل بوزارة التعليم الفرنكوفوني البلجيكية. وللشاعر طه نشاطات أدبية مهمة منها مساهمته في إصدار مجلة "أصوات معاصرة" وتأسيس حلقة عكاظ ببروكسل فضلا عن تنسيق الصالون الأدبي العربي ببلجيكا. لقد صدرت له مجاميع شعرية منها "ولي عناكب أخرى"، و"بهواء كالزجاج"، و"أكره الحب".

في اتصالي به تحدثنا عن الشاعر المغربي الراحل أحمد المجاطي، ومن ثم عن بداياته الشعرية وتطوراتها وعنهما يقول طه عدنان "بدأت الكتابة في أواخر الثمانينات. كنت أكتب بحماس زائد قصائد تفعيلية ذات نبرة عالية أملتها أجواء النضال الطلابي. وقد كنت في غمرة البحث عن صوتي الشعري، عندما صدر ديوان فريد، ولا أقول يتيم، لشاعر مغربي هو أحمد المجاطي، إنه ديوان 'الفروسية'. ديوان مغربي أصيل دون تكلّف ولا انغلاق، عربي دون تمشرق ولا انزلاق قومي، منفتح على الأفق الإنساني للشعر. لغته متوهّجة متماسكة وخطابه الشعري ذو نفس تقليدي ينحو نحو التجديد، في استدعاء خلّاق للموروث الشعري العربي وانفتاح واضح على قضايا العصر والمرحلة. وقد شدّني إليه بشكل خاص هذا الحوار الشعري ذو الطابع الرؤيوي للذات في تفاعلها مع العالم والوجود".

في هذا السياق يحدثنا الشاعر عن مفهومه للشعر وعن علاقة الذات بالعالم فيبرز أنه "بالرغم من أن الإبداع الشعري هو فعل ذاتي خالص، إلا أنه يبقى غير منفصل عن السياق العام الذي أنتجه. لذا، يصعب على الشاعر أن ينكفئ تماما على ذاته مهما تضخّمت هذه الأخيرة ليصبح محور العالم في نصوصه، وينشغل بأشيائه الصغيرة فحسب، لأنّها ليست بالضرورة موضوعا شعريا شاملا. فاحتكاك الذات بالآخر هو مصدر التوتر الوجودي الذي يشكّل مادة الشعر. وقوة الشعر تكمن في الارتقاء بهذه المشاعر الذاتية إلى مستوى السؤال الوجودي. إنّها قوة فعل الخلق الفردي داخل المحيط الاجتماعي".

ويضيف "شخصيا، أميل إلى القصيدة التي تحتكّ بالواقع وتعبّر عن حيرة وهشاشة الكائن تحت وطأة اللحظة الجماعية بكامل توتّراتها. والقصيدة هي إعادة صياغة لهذا التفاعل الخلاق. محاولة للاشتباك مع قضايا المجتمع والتفاعل مع الأحداث في سبيل شعرنة الألم الفردي والجماعي باعتباره ألما إنسانيا. فالشعر أيضا موقف من العالم، وهو بهذا المعنى سلطة حرّة قائمة بذاتها لها إرادتها المستقلة. وعليها أن تلبّي نداء الكتابة وتنطق بحكم ما حيال ما يجري دونما إكراه من حزب أو قبيلة أو مذهب. إنّها سلطة الفرد الجمعي. فقط، على الشاعر أن يمارس هذه السلطة الفريدة بترفّع عن الظرفي والطارئ ليرتقي به إلى زمن الشعر اللانهائي".

لا شك أن انتقال الشاعر طه إلى بلجيكا قد شكل لديه بعدا شعريا يضاف إلى تجربته في وطنه المغرب، وفي هذا الخصوص يقول "بعد هجرتي إلى بروكسل عام 1996، بدأت أكتب على كومبيوتري الشخصي لتخرج نصوصي خافتة ومتحرّرة من كل إيقاع. كان لديّ شعور أن قصيدة النثر تضمن حرية الانطلاق عبر جغرافيات الشعر وتخفف من كل الإكراهات الشكلية... لكنّني لم أمنع نفسي قط من إفساح المجال للموسيقى عندما تقترح عليّ إيقاعاتها. فالشكل قد يفرضه الموضوع حينا، مثلما يفرضه الإيقاع النفسي أثناء الكتابة في معظم الأحيان".

ويتابع "عموما، فقد راوح الشعراء المغاربة بأريحية ما بين اختيارات قصيدة النثر والتفعيلة. ربما بسبب انفتاحهم على الأصل النظري لقصيدة النثر في فرنسا، وأيضا بسبب مواكبتهم لكل الخلافات الفنية التي رافقت قصيدة النثر في المشرق، والتي رغم تداعياتها على الساحة الشعرية الوطنية، إلا أنه لم يكن أحد مهتما بإعادة إنتاج نفس نقاشاتها. رغم نزوع بعض المتطرفين إلى تحويل قصيدة النثر إلى قالب جديد يقيّد من حرّية الشعر، أو إلى عقيدة شعرية تؤطّرها مدارس شعرية أقرب إلى مجالس الإفتاء منها إلى مراكز البحث، ومرجعيات نقدية تتشبه بالمرجعيات الدينية في صرامة الأحكام".

وعن مخاوفه من أن تصبح قصيدة النثر صنما يعبد، يؤكد أنه يعي الإشكاليات التي تحيط بهذا النمط من الكتابة الشعرية وفي الوقت نفسه عبَر عن ضرورة التحلي بوازع الحرية في التعاطي الشعري المتنوع مبرزا "قد أفهم التخوفات التي واكبت بدايات قصيدة النثر خاصة من قبل سدنة الأوزان الذين وجدوا في حرية الانطلاق باتجاه ممكنات شعرية جديدة تهديدا لصنمية نظرتهم إلى الشعر. لكنني لا أستسيغ اليوم أن يناصب بعض شعراء قصيدة النثر الجدد العداء للوزن والقافية بشكل راديكالي. فالحرية التي تعطيهم الحق في عدم التقيّد بالأوزان، تعطي لغيرهم استثمار هذه الأخيرة لغاية الشعر... هذا العصيُّ على التصنيف. وقصيدة النثر أصبحت سلطة لها سطوتها في الشعرية العربية الراهنة، وللجميع أن يمارس حرية الكتابة في تخفّف كامل من الأوزان. فعل الحرية هذا قد يسفر لدى الموهوبين من الشعراء الجدد عن قصائد لافتة. كما أنه قد يسفر – ربما بسبب التحرّر الكامل من كل القواعد والإكراهات الفنية – عن كمّ هائل من القصائد المنثورة في مواقع التواصل الاجتماعي. قصائد لا يمتُّ معظمها إلى الشعر ولا إلى قصيدة النثر بصلة. إنه نثر بلا قصيدة".

يحدثنا طه عدنان عن خارطة النقد الأدبي في المغرب ومدى تفاعله مع التجارب الشعرية الجديدة، حيث يرى أن "من خصائص النقد عموما أنه حامل لرؤية واضحة عكس الشعر الذي هو غامض وعصيٌّ على التصنيف. ولطالما عانى الشعر – في السابق – من أصولية منهجية حالت دون التفاعل الخلاق مع المتن الشعري، لأنها كانت تختار منه ما يؤكّد وجاهة هذا الطرح النقدي أو ذلك".

طه عدنان

> بعض المتطرفين لديهم نزوع إلى تحويل قصيدة النثر إلى قالب جديد يقيّد من حرّية الشعر

ويضيف "إلا أنه في العقدين الأخيرين، بدأ النقد يتخفّف تدريجيا من سطوة المنهج الواحد، لتتم الاستفادة من مناهج متعدّدة من خلال مقاربات نقدية تتعاطى مع الممارسات النصية دون مسبقات نظرية لتنصت إلى تحوّلاتها وتستجلي ملامحها الجمالية، بل وتعيد ابتكار مضامينها الفنية حسب السياق النفسي والاجتماعي والنسق الثقافي المنتج للفعل الشعري. هناك مواكبة لجديد الشعر المغربي عبر القراءات النقدية في الصحف والمجلات الورقية والإلكترونية وفي الملتقيات والمهرجانات الشعرية والأدبية تساهم في إغناء النص بكل هذه الأبعاد المعرفية والجمالية وفي تشكيل الإدراك الفني العام بالممارسة الشعرية. وكم من قراءة نقدية أعادت صياغة الشعر المقروء لتضاهيه شعرا. وفي المقابل هناك بعض القراءات النقدية الإخوانية، التي قد تنزلق إلى الطبطبة على نصوص ضعيفة، والتي تغذّيها ظروف المتابعة أو بالأحرى المجاملة الصحافية السريعة... وهذا جزء من التفاعل الإنساني مع ذوات صديقة لا ينفع الشعر ولا يضره في شيء".